

الحرية على محك تقنيات الحياة

Freedom at the touchstone of life's techniques

عبد الوهاب بن بشير خطاط¹كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (تونس)-[abdelwahebkattat@yahoo.fr]

تاريخ الاستلام: 2020/09/29

تاريخ القبول: 2021/05/30

تاريخ النشر: 2021/06/30

ملخص باللغة العربية:

عرفت تقنيات علوم الحياة تطورا ملحوظا، انطلق من محاولة معرفة المكونات الوراثية للكائن الحي ومعالجة بعض الأمراض وصناعة الأدوية إلى إحداث بعض التغيرات على جسم الكائن الحي. انطلقت هذه التجارب من البكتيريا فالنباتات فالكائنات الحيوانية لتتجه إلى الإنسان مما يطرح جملة من الإشكاليات الفلسفية أو المسائل كالهوية أو المسؤولية وعلى وجه الخصوص الحرية. ولما لهذا المفهوم من علاقة بالإرادة والفعل والجسم إلخ... باعتبار أن تقنيات الحياة (الهندسة الوراثية) يمكن أن تحيد عن هدف العلاج والاكتشاف إلى التحكم والتوجيه، وبالتالي سلب حرية الفرد الذي يتعرض إلى تغيير الجينات. كلمات مفتاحية: حرية، هندسة وراثية، جينة، حمض نووي منقوص الأكسجين...

Abstract:

Biotechnology techniques have witnessed remarkable development, started by trying to find out the genetic components of the living being, and the treatment of some diseases and the pharmaceutical industry to the trying to bring about changes to the organism. These experiments were launched from the bacteria to the plants then animals to finish with the human being, the thing that raises a set of philosophical problems or responsibility and especially freedom. As this concept has a relationship with the will, the action, and the body... considering that life techniques can deviate from the goal of treatment and discovery to control and guidance and thus depriving the freedom of the individual who is exposed to changing genes.

Keywords: Freedom, Genetic engineering, Gene, Deoxyribonucleic acid, ...

¹-دكتور باحث، في الفلسفة (ابستمولوجيا: بيوتيقا)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، جامعة تونس، مخبر الفلسفة الفيلا، القيروان، تونس، البريد الإلكتروني: [abdelwahebkattat@yahoo.fr].

1. مقدمة:

لا شك أن العقود الأخيرة من القرن العشرين التي ودعناها، قد شهدت نهاية حقبة هامة من تاريخ البشرية، امتدت على ما يقارب خمسة قرون كاملة، هذه الحقبة انبجست ملامحها منذ سقوط آخر معقل الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية سنة 1492 م، واكتشافات كولومبوس للعالم الجديد التي انطلقت بداياتها بالوصول إلى جزر الكرايب سنة 1492 م، ثم القارة الأمريكية سنة 1498 م، وكتابات الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" الذي أعدّ المبشر الرئيسي أو الحقيقي بالحدثة، أو هو باني الأسس الأولى للحدثة، وذلك من خلال جملة من المبادئ التي نادى بها أهمها التحكم في الطبيعة أو السيطرة على الطبيعة وذلك عندما يقول (Descartes, 1861) "عليّ أن أكون سيّدا على الطبيعة ومالكا لها" (p. 57).

وهو الدرب الذي بقت آثاره واضحة على عديد الفلاسفة أمثال "فيشته" ويتضح ذلك عند قوله (Fichte, 1965): "أريد أن أكون سيّدا على الطبيعة، وعليها أن تكون تحت سلطاني، أريد أن يكون لي عليها التأثير الذي تسمح لي به قوتي دون أن يكون لها أي تأثير عليّ" (p. 89).

هذه الحقبة وصفت على حق بأنها حقبة الثورات والتحوّلات الكبرى سواء على مستوى التوجهات التي اتبعتها المجتمعات البشرية في مجال اختيار المصير، أو في مستوى سيرورة وتطور الفكر وتقدم العلوم والتكنولوجيا، ولا سيما فإن انحدار "العقود الأخيرة لهذه الحقبة نحو النهاية وانبجاس الألفية الثالثة يلوح في الأفق كان لذلك سيمات خاصة أو بارزة، "فإننا لا نبالغ على الأرجح إذا ما أشرنا إلى الترسانة المتنامية من التقنيات الحيوية إنما توفر لنا أدوات قوية تمكننا من المشاركة فيما سيكون بلا أدنى شك أكثر التجارب ثورية على أشكال الحياة... عبر التاريخ" وهو ما أكدّه (ريفكن، جيرمي، 1999، ص. 99). ، حيث تعاضم الوعي بالنتائج والانعكاسات المختلفة المترتبة عن التقدم النوعي الكبير والسريع الذي بتنا نشهده في ميادين علمية مثل الطب وعلوم الحياة، والهندسة الوراثية على وجه الخصوص، حتى أعدت الهندسة الوراثية أعظم انتصار حققه الإنسان في مجال العلم عموما.

لقد انطلقت تقنيات الحياة (الهندسة الوراثية) من التجارب على البكتيريات، فالنباتات فالحيوانات ثم بدأت تحضّر لاكتساح الإنسان رأسا، "إن العلماء يحدوهم أمل التدخل في جسم الإنسان بالتغيير والتعديل" وهو ما يشير إليه (Rostand, Jean, 1939, p. 54). بمعنى إحداث تغييرات على جينوم الإنسان، ما يمكن أن يحدث تغييرات عميقة على جينوم الإنسان مما يقلّص التمييز بين الإنسان والأشياء. أمام هذه التطورات أو التحوّلات المترتبة عن التقدم العلمي النوعي والسريع وعلى وجه الخصوص في ميدان علوم تقنيات الحياة الموجهة للإنسان رأسا، فإننا استشعرنا جملة من الإشكاليات أهمها الحرية،... وقد أصاب (Dagognet, François, 1988) عندما قال: "إن البيولوجيا أو علم الحياة تدخل في المقدس الحياتي والأبعد من ذلك فهي تحرك الخطابات أو الحوارات المتقدمة" (p. 155) وليس تناول هذه المسألة مجرد تناول أو تسلسل لاهتمام الفكر الإنساني بهذه المسألة وبشكل عادي بل لها وقعها

المتميز عن التناولات السابقة لها ولسائر المواضيع الفكرية الأخرى، لما لتدخلات تقنيات الحياة من أثر بليغ في جعل الحرية الإنسانية، عرضة لجملة من التساؤلات، وهو ما يستوجب إعادة النظر في هذه المسألة في علاقة بالإحداثيات البيولوجية ونقصد الهندسة الوراثية. بمعنى يأتي اهتمامنا بالحرية في الإطار الذي اقتضته التحولات العلمية التي أصبح هدفها تغيير سلوك الإنسان والتلاعب بجيناته كان ذلك كان منبعا للتساؤل عن حرية الفرد بامتياز... هذا التحول الذي تشهده تقنيات الحياة سيجعل من الحضارة التي نعيشها حضارة في ظاهرها نجاعة وفي باطنها أزمة وقلق ونقصد غياب القيم، والأخلاق وهو ما تطرق إليه عديد الفلاسفة....

لكن هل يعني ذلك ضرورة وقف العلم؟

وتبعاً لما سبق نطرح الإشكاليات التالية:

ماذا نقصد بالهندسة الوراثية؟

أية مشروعية لطرح مشكل الحرية في علاقة بالهندسة الوراثية؟

وفي هذا الغمار يتنزل بحثنا، وتبعاً لما عرجنا عليه فإن عملنا سيقسم على النحو التالي:

-تطور تقنيات الحياة: الهندسة الوراثية نموذجاً.

-الهندسة الوراثية.

-تطبيقات الهندسة الوراثية.

-الحرية على محك تقنيات علوم الحياة.

-معنى الحرية.

-الحرية على المحك.

2- تطور تقنيات الحياة: الهندسة الوراثية نموذجاً:

2.1- الهندسة الوراثية

تعد الجينة (Gène) (الرسم رقم 2 - 6) من أهم مكونات الخلية (الرسم رقم 1 - 6) وهي مكون مجهرى يحتوي المادة الوراثية وهي جزء من الحمض النووي منقوص الأكسجين ADN ، والذي يحمل التركيب البيولوجية للكائن الحي أي سماته الجسدية وطباعه وقدراته العقلية والنفسية إلخ... (الرسم رقم 3 - 6) "يمكن أن نحدد الجينة بأنها مكون أساسي من مكونات الخلية وهي جزء من الحمض النووي منقوص الأكسجين ADN وهي مسئولة على إنتاج البروتينات لدى كل الكائنات ومن بينها الإنسان..." وهو ما ذهب إليه كل من (Russo, Enzo, Cove, David, , 1996, p. p 33- 34).

وقبل تطور علم الوراثة الجزيئي، كانت الجينة مكوناً ضبابياً من مكونات الخلية، ولكن سنة 1944 برهن O. T. Avery على أن المكون الأساسي للخصائص الوراثية هو الـADN، وقد تواصل هذا الاكتشاف على يدي "جيمس واطسن" و"فرانسيس كريك" اللذان أكدا أن الحمض النووي منقوص

الأكسجين يتألف من سلسلة حلزونية مزدوجة وذلك في ستينات القرن العشرين، "ويمكن أن نحدد الحمض النووي منقوص الأكسجين ADN لكائن ما بأنه موسوعة تحتوي كثير من التعريفات المنضدة الواحدة تلوى الأخرى بطريقة مستقلة وهو جزيء خطي يحتوي مجموع من الجينات التي تمثل المادة الجينية التي تحمل كل المعلومات من الآباء إلى الأبناء ومن الخلية الأم إلى الخلايا الناتجة عنها ذلك أن "جيمس واتسن" و"فرانسيس كريك سنة 1953 في كمبريدج بأنقلترا قد أكدا بأن الحمض النووي منقوص الأكسجين ADN له بنية ليفية مزدوجة أو يتكون من ليفتين ملتوية الواحدة حول الأخرى طولياً" وهو ما ذهب إليه كل من (Russo, Enzo, Cove, David, , 1996, p. p 33- 34).

وقد برهن في هذه الفترة كل من *H. G. Korana* و *M. W. Wirenberg* على أن تسلسل قواعد الحمض النووي منقوص الأكسجين مسئولاً عن المعلومة الوراثية التي تنتقل من الخلية الأم إلى الخلية الوليدة والتي يرثها كل كائن حي عن آبائه. وهذه المعلومات التي يحملها الحمض النووي منقوص الأكسجين هي التي تحدد لون الكائن وحجمه... إن القواعد المكونة للحمض النووي هي: (A) Amine و (T) Thymine و (C) Cytosine و (G) Guanine. ويرتبط A-T و C-G، وترتبط بين القواعد المكونة للحمض النووي منقوص الأكسجين روابط هيدروجينية (رسم 4 - 6) وتكون هذه القواعد منظمة $C = G$ و $A = T$. "ثبت أن القواعد النيتروجينية (A, T, G, C) وهذه اختصارات للأدينين والثيامين والسيتوزين والجوانين، يتحد كل من الأدينين مع الثيامين والسيتوزين مع الجوانين وعددهما متساوي في جميع الخلايا السليمة" وهو ما يؤكده الجندي، (أحمد رجائي/ 1434هـ / 2013، ص. ص. 12 _ 24).

وتحدث طفرة في خصائص الكائن الحي إذا تغير ترابط هذه القواعد. وتعد الهندسة الوراثية (رسم 5 - 6) إعادة تركيب لشريط الحمض النووي منقوص الأكسجين وبرمجته على خلاف ما كان عليه ، وبالتالي يمكن القول بأن الهندسة الوراثية تقنية تتجاوز التوارث الطبيعي للجينات في عملية التكاثر البكتيري أو النباتي أو الحيواني. وقد تعددت التجارب التي قام بها العلماء وتعلقت بهرمونات النمو والذكاء... (الرسم 6-6).

"تعد الهندسة الوراثية مجموع تقنيات تمكّن من إيلاج ليفة حمض نووي منقوص الأكسجين أ. د. ن. في مادة جينية أو جينة ما" (Morère, Jean- Louis, Pujol, Raymond, 2003, p. 525). فهي تمكن من استبدال جينات بجينات أخرى أو لنقل جينات غير مرغوب فيها بجينات مرغوب فيها. وقد كانت أول تجربة للقيام بهذه العملية في ستينات القرن الماضي في فرنسا وقد أجريت على فأر. ثم تكررت في نفس العشرة هذه التجربة ولكنها قامت على الجمع بين حمض نووي منقوص الأكسجين لإنسان مع حمض نووي منقوص الأكسجين لفأر ولكن لم تبلغ هذه التجربة النجاح.

وفي ألمانيا توصل علماء في التسعينات من إدماج قطعة ADN نباتية في الأرز الهندي. وقد تمكن الدكتور "فرانسيس أندرسون" في أواخر التسعينات من معالجة بنتين تعانين من انهيار المناعة المركب وذلك بأن قام بتغيير جين مصاب بجين سليم وقد نجحت التجربة وشفيت "أشانتي دي سلفا" و"سينثيا كاتشال" ودخل الطبيب التاريخ بعد أن رفضت له مجلة "نيو أنغلند جورنال" سنة 1968 ورقة علمية تقدم بها للنشر بطلب من أستاذه في البكالوريا، وهي تتناول تقنية الهندسة الوراثية ورفضت المجلة هذه الورقة بدعوى بعدها عن الواقع، ولكن بعد النجاح الذي حققه "أندرسون" اعتذرت له المجلة. وتعد هذه أهم المحاولات التي تم القيام بها في هذا الميدان وهي على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر. ولكنها لم تتوقف بل أنجزت عدة تجارب أخرى وهي تجارب مركزة أساسا على الحيوانات والإنسان باعتبار أن المجال النباتي قد أخذ شوطا لا بأس به ولا يخفى علينا طموح العلماء في التوصل إلى النجاح في تجاربهم على الإنسان لا غير أي إحداث تغييرات على تركيبته الجسمية كاللون والبنية والطول والعرض وقدرته الطبيعية من ناحية الذكاء ووحدرة النظر والسرعة... وربما أحدث تجربة وأخطرها قام بها العلماء كانت سنة 2019 وتتمثل في زرع جين بشري يسمى مايكروسيفالين أو (MCPH1) يعتقد أنه مسئول على الذكاء البشري في جينوم قرد مكاك ريسوسي وذلك على أيادي صينية وأميركية وإسبانية.

2.2 تطبيقات الهندسة الوراثية:

يعد النجاح في نقل بعض الجينات بين النباتات والبذور من أهم الإنجازات التي تساعد على توفير أكثر ما يمكن من تغذية للبشرية من حيث الكمية والكيفية في زمن يشهد فيه العالم انفجارا سكاني لا مثيل له... فتمكن هذه التقنيات النباتات والبذور من مقاومة الأمراض والجراثيم الفتاكة... المناعة ضد الأمراض المختلفة والأضرار التي تلحق بالأشجار والزراعات وتكون المقاومة فيها طبيعية دون اللجوء إلى المبيدات الحشرية مما يجنبنا التلوث والإضرار بالمحيط... ولا يخفى علينا أنه في السنوات الأخيرة قد بلغ عدد النباتات التي خضعت لتعديل الجيني 85 نباتا وقد توضح أن كل الأموال المرصودة في هذا المجال لها عائدات ضخمة "أثبتت الدراسات الاقتصادية الجادة أن كل دولار أنفق على الأبحاث في هذا المجال كان عائده 141 ضعفا..." (الجندي، أحمد رجائي 1434هـ / 2013، ص. ص. 12 _ 24). وبالتالي ففي المجال النباتي يمكن أن تعوض تقنية الهندسة الوراثية صناعة الأدوية والمبيدات الحشرية التي تضر بالمحيط ومنها النباتات والكائنات الحية بما فيها الإنسان أي أنها تقلص من حجم التلوث.

وأما على مستوى صحي تمكننا تقنية الهندسة الوراثية من إنتاج لقاحات مضادة للأمراض المستعصية أو المزمنة أو الأوبئة (ألسنا في حاجة اليوم إلى تقنية الهندسة الوراثية لإنتاج أمصال تحمي الإنسان من كوفيد 19) بعد أن عجز الإنسان عن صناعة لقاحات عادية... حيث سعت عديد المخابر إلى تطوير الأدوية القديمة بالاعتماد على هذه التقنية.

كما تمكن الهندسة الوراثية من إدخال الجينات غير المصابة مكان الجينات المصابة في الخلايا النباتية أو الجسدية للكائنات الحية مما يساعد على الشفاء من الأمراض المزمنة كالسكري ونقص المناعة، والإعاقات الوراثية والتشخيص المبكر لعدد الأمراض ومعالجتها وإتباع صاحبها حماية غذائية معينة لكي لا يصاب بها وهو ما يقلل من المصاريف العلاجية سواء بالنسبة للفرد أو الأسرة أو الدولة... وتعد هذه الجوانب المحموده في تقنية الهندسة الوراثية، لكن ذلك لا يخفي جملة من السلبيات أو الآثار الجانبية وتتعلق هذه الجوانب بإمكانية أن توظف هذه التقنية ضد الإنسان كأن نستخدمها في الحروب البيولوجية أو التخلي على النباتات الطبيعية وتعويضها بما هو معدل جينيا.

إمكانية أن يتم تغيير الإنسان من حيث البنية الجسدية (السرعة، القوة، الذكاء...) وما يحدثه ذلك من خلل بين الأفراد أو من تباعد من حيث القدرة الذكائية والسرعة والقوة... فتقتصر هذه التدخلات أو التغييرات على أصحاب الجاه والمال دون غيرهم من الفقراء هذا على مستوى البلد الواحد وعلى مستوى عالمي على بلدان الغنية دون الفقيرة.

بمعنى يمكن أن تستخدم تقنية الهندسة الوراثية لأغراض غير علاجية أي لغرض التلاعب بالكائنات الحية....

أليس من الممكن أن يخرج فيروس معدل جينيا عن السيطرة ويقضي على الكائنات الحية منها الإنسان... وربما كوفيد 19 من الفيروسات المعدلة جينيا وقد خرج من المخابر وصعب السيطرة عليه أو هو بتخطيط من قبل القوى العظمى لتغيير مسار العالم وفتح أسواق تنافسية من صنف جديد لتجاوز صعوبات اقتصادية متراكمة وصعب تجاوزها.

ومجمل القول لقد حققت الهندسة الوراثية عموما نجاحات على مستوى علاجي من خلال توفير الأدوية التي لا يمكن أن تنتج إلا بهذه التقنية، وتوفير المنتوجات الغذائية بشكل أنجع من حيث الوفرة والجودة... لكن بدأ العلماء يستعدون لتطبيق هذه التقنية على الإنسان وليس الغاية من ذلك العلاج فحسب بل التلاعب بالجينات قصد تغيير السلوك الإنساني وذكاءه ولونه وحجمه... وأمام توجه العلماء لتطبيق هذه التقنية على الإنسان فقد استشعرنا جملة من الإشكاليات من بينها مشكل الحرية. وتعترض السؤال عن الحرية في ظل ما وصل إليه علم الحياة وما يطمح إليه في إحداث تغييرات على الإنسان نفسه، جملة من الاعضالات أهمها ما يقتضيه القول بالحرية والاستقلالية في اختيار الفعل والسلوك وما تحدثه الهندسة الوراثية في الميدان البيولوجي وما يمكن أن تحدثه هذه التقنية من تغيير على الفعل الإنساني الحر واختياراته. ذلك ما يجعل حرية الإنسان على المحك، ويؤكد ذلك ضرورة تدخل الفلسفة في تشخيص المسألة وذلك بالعودة إلى أصول التفلسف، ونقصد سقراط وأفلاطون حيث عرفت الإنسانية ثورتها الفكرية وكانت مهمة العقل السعي إلى تنوير العالم الإنساني. بل والأكثر من ذلك تنصب الفلسفة نفسها مشرعا للعلم بزعمها تحدد مجال صلاحيته: أي ما يدخل في حوزته وما لا يدخل في حوزته

بدعوى أنها معرفة شاملة، تشتغل في جميع المجالات ذلك ما عبر عنه (لويس ألتوسير، 1986) بقوله: "لكن لا يعني (هذا) أن الفلسفة تتحدث عن العلوم فقط فهي تتحدث وكلنا يعرف ذلك عن كل شيء وعن اللاشيء فهي تتناول في حديثها الدين والسياسة والأخلاق والأدب إلخ..." (ص. 66). أو أن تشتغل الفلسفة حول أزمات العلم لتبني حولها مواضيعها وأبحاثها، وسواء أكانت هذه الأزمات أزمات حرجة أو أزمات "نمو" بلغة "ألتوسير" وما يمكن أن ينجر عن هذا التطور أو النمو الذي يحزره العلم من مساس بحرية الفرد أو حرية الإنسان.

ماذا نقصد بالحرية؟

بأي معنى أن تصبح الحرية على المحك أمام تطور الهندسة الوراثية؟

3- الحرية على محك تقنيات علوم الحياة:

3.1- معنى الحرية:

تعتبر الحرية من أهم مقومات حياة الإنسان وبقائه على قيدها "إن قوة كل إنسان وحيته هما الأدوات الأولية اللازمة لحياته وضمأن بقاءه" وهو ما أشار إليه (Rousseau, 1986, p. 50). ولكن يعدّ مفهوم الحرية من المفاهيم الملتبسة أو صعبة التحديد وذلك لاستعماله في ميادين متعددة. وهذا الالتباس عبّر عنه (Leibniz, 1961) بالقول "إن مفهوم الحرية على غاية الالتباس" (p. 193). و يعني في المجال الفلسفي عموما أن الإنسان الحر الإنسان الذي لا يخضع لأي ضغط خارجي يمنعه من القيام بفعل ما وهو المعنى الذي يتمثل في أن الإنسان الحر هو الإنسان المتحرر من تدخل الآخر. هذا المعنى لم يخرج عنه عديد الفلاسفة من بينهم "ديكارت" الذي اعتبر أن الحر هو الذي لا يؤمر في فعله من قبل الآخرين وأن يتبع حكمه الخاص وذلك عندما يقول (Descartes, 1939): "نعتبر أنفسنا أحرارا في فعل ما لم نؤمر من أجله إطلاقا من قبل الآخرين ويجوز لنا فيه إتباع حكمنا الخاص" (p. 1178- 1177). بمعنى أن يمارس الإنسان فعله دون أن يتعرض إلى عوامل خارجية تمنعه من ذلك، أو تؤثر عليه. ولعل "سبينوزا" في حديثه عن غاية الدولة قد عنى المعنى الذي أشرنا إليه أي أن الحرية هي حق الفرد في الوجود والفعل والدولة هي الراعي لهذه الحرية وهي التي تمنع من أن يكون الفرد ملكا لآخر ذلك عندما يقول (Spinoza, 1966) "يتربّب بوضوح ما بعده ووضوح عن أسس الدولة كما سبق أن شرحنا، أن غاية الدولة القصوى ليست السيطرة. فلم توجد الدولة لتحكم الإنسان بالخوف ولا لتجعله ملكا لإنسان آخر بل إنما وجدت لتحرّر الفرد من الخوف حتى يعيش قد المستطاع في أمن أي حتى يحفظ قدر ما يستطيع دون ضرر بالآخرين حقّه الطبيعي في الوجود وفي الفعل" (p. 329). ويعد شيء ما حراً في فلسفة "سبينوزا" عندما يكون خاضعا لقوانين الطبيعة فالكائن الذي يعيش في الماء هو حراً رغم أنه لا يطير باعتباره يخضع لقوانين الطبيعة، "أقول إنّ هذا الشيء حراً حين يوجد ويفعل بحكم الضرورة النابعة من طبيعته وحدها" (Spinoza, 1954, p. 1251).

ولقد أصاب حسب رأينا "مونتسكيو" في ذهابه إلى اعتبار أن الحرية لا تعني فعل كل ما نريد، بمعنى ترتبط الحرية بما يسمى المسؤولية، أي إذا لم تكن حرية مسئولة أو فيها التزام بقانون يحكم الجميع فإنها تعد تهوور وذلك عندما يقول (Montesquieu, 1979) "صحيح أن الشعب في الأنظمة الديمقراطية يبدو أنه يفعل ما يريد، إلا أن الحرية السياسية لا تكمن البتة في فعل ما نريد... فالحرية هي الحق في فعل كل ما تسمح به القوانين، وإذا كان مواطن قادرا على فعل ما تمنعه، لم تعد لديه حرية لأن الآخرين ستكون لهم مع ذلك هذه القدرة" (p. 292). ومجمل القول فإن الحرية هي القيام بفعل دون الخضوع لأي توجيه خارجي ولكن دون الإضرار بالآخرين.

هذه المعاني التي يحيل عليها مفهوم الحرية تصبح محل مراجعة في ظل التدخل المفترض في جينات الإنسان والتحكم فيها حسب الرغبة، أي تجعل مشكل الحرية على المحك.

2.3- الحرية على المحك.

يعدّ لون البشرة، حجم الشخص، ذكاء الفرد، تخلفه الذهني، الأب البيولوجي، الأم البيولوجية... كلها أشياء مبرمجة قبل الولادة وهي من مركبات الفرد إلى جانب ما يكتسبه من ثقافة في حياته... وإذا نجح العلماء والأطباء في التحكم في جينات الإنسان فإن ذلك يعد زعزعة لهذه المقومات التي تقوم عليها الحرية. حيث يصبح الفرد المفترض أو الذي يتم تغيير جيناته والتحكم فيها يعاني من الاستلاب بمعنى التدخل في جيناته والتحكم في صفاته وتغييرها حسب رغبة الآخرين وليس كما كان سيكون عليه طبيعياً. يشعر الفرد الذي تم التدخل في جيناته بأن صفاته كالذكاء مثلاً... ليست صفاته أو الجينات المتحكمة في أفعاله ليست جيناته، فهو وسيلة في يدي برمجة خارجة عنه، وأن فعله ليس إرادياً وتفكيره أيضاً.

وبالتالي فهو مرهون لغيره وليس حرّاً. إذ هناك انتقال أو تحول من إنسان طبيعي له حريته في أفعاله ومكوناته كاللون أو الذكاء... إلى إنسان متحكم فيه من قبل الإنسان الذي غير جيناته وتحكم فيها كما يرغب، ذلك ما يتنافى مع معنى الحرية ويجعل الفرد يخضع لقوة خارجة عنه وخضوع الفرد لقوة خارجية يزيل عنه الحرية "إن ما أحبط عزمي ببالغ القوة هو أن تقع علة وجودي وعلة محددات خارج ذاتي، وقد كان تجلّي هذه العلة بدوره محددًا بعلل أخرى توجد خارجها. إنّ هذه الحرية لم تكن البتة حريتي الذاتية، بل حرية قوة غريبة توجد خارجاً عني" وهو ما قاله (Fichte, 1965, L.1, p. 86).

يشعر الإنسان الذي يتم تغيير جيناته بالتوتر في ما يتعلق بحريته في أفعاله وصفاته هل هو مستقل أو أنه شيء من بين الأشياء الأخرى المتحكم فيها، أي متحكم في أفعاله من قبل الآخرين الذين تدخلوا بالتغيير في جيناته، وبالتالي تغييب الإرادة التي تحكم أفعال الإنسان وتحركاته "إن الإرادة، بما هي علة أولى لا تحددها أية إرادة أخرى عليها ممكنة، يجب أولاً أن تشكل جسدي وتحركه وأن تشكل بواسطته العالم من حولي وتحركه. إن قوتي الطبيعية الفاعلة ستكون ببساطة تحت سلطة الإرادة ولن تتحرك إلا

بالإرادة.... يجب أن تنبع أفعالي من هذه الإرادة، وألا أقوم بإجمالا بأي فعل من غيرها" وهو ما أكدته (Fichte, 1965, L.1, p. 89).

ماذا لو نجح العلماء والأطباء في التحكم في جينات الإنسان؟

إن تغيير جينات شخص يفترض "آخر" يختفي وهو سيد قوي ومجهول يوجه "الأنا" الذي تمّ التحكم في جيناته. فالشخص الذي يتمّ التدخل في جيناته يعيش ثنائية "الأنا" المتحكم فيه و"الآخر" المتحكم، وهي ثنائية تتركّز الازدواجية والانشطار داخل الشخصية مما يتعارض مع حرية الفرد واختياراته كما حددها عديد الفلاسفة "إنني أريد أن أكون مريدا حراً لأجل غاية اخترتها بحرية... على اعتبار أنه لا يمكن أن توجد خارج إرادتي أية قوة أخرى تحدد أفعالي" وهو ما يقره (Fichte, 1965, L.1, p. 89).

ولا يخفى علينا أن حرية الاختيار مرتبطة أشد الارتباط بما يسمى المسؤولية، بمعنى أن الإنسان مسئول عن اختياره أمام نفسه وأمام الآخرين باعتبار أن اختياره لنفسه هو اختياره لغيره من البشر، وهو ما يؤكدّه (Sartre, Jean Paul, 1968) عندما يتحدث عن جملة من الأفعال التي يقوم بها الإنسان فهو مسئول عنها ومن بينها الزواج وذلك بقوله: "وإذا أردت أن أتزوج... فإن ذلك لا يلزمني وحدي بل يلزم الإنسانية جمعاء بالسير معي على طريق الزواج الأحادي. ومعنى هذا أنني مسئول أمام نفسي وتجاه الآخرين، وأنا أبداع صورة خاصة للإنسان أتخيرها لنفسي. وإذا أختار لنفسي، فإنني أختار الإنسان" (p. 27).

بمعنى أن الهندسة الوراثية بتدخلها في التركيب الوراثي للإنسان تقضي على ما يسمى حرية الفرد وتزيع قدرته على الاختيار وتجعله مرتتهن إلى الجينات التي تم إدخالها من قبل الآخرين، أي متحكم فيه أو في اختياراته حسب رغبة الإخر الذي اختار الجينات التي تمّ إدخالها وبناء على ذلك فهو غير مسئول عما يقوم به من أفعال. وبالتالي عدم محاسبته عما يقوم به من أفعال، وهو ما يطرح مشكل قانوني يمكن أن نتطرق إليه في حيز آخر. لقد انطلق عملنا ضمن علاقة الهندسة الوراثية بالحرية من اللحظة التي أصبح فيها الإنسان له القدرة على إحداث تغييرات على الجينوم البشري والتحكم في جيناته والتلاعب بها ... حيث لم يعد هذا العلم مجرد أفكار بل قابل للتطبيق على الجسم الإنساني. وهنا يتضح أن الحديث عن الحرية في علاقة بالهندسة الوراثية متعلق بالمستقبل أي عندما يقوم الإنسان بتنفيذ برنامجه التغييري على الجينوم البشري وهو مازال يحضر لذلك، وبالتالي حرية مرتبطة بالمستقبل تأخذ بعين الاعتبار الحياة الإنسانية المستقبلية، على الرغم أننا لا نستطيع التكهّن بتأثيرات هذه التقنية وتبعاتها على المدى البعيد، كما لا نعرف ماذا ستفعل في ما بعد أي بعد النجاح في إحداث تغييرات على الجينوم البشري والتلاعب به. وهاهنا تكمن مسؤوليتنا اللامحدودة في ضرورة تجنب التبعات التي يمكن أن تضر بالحرية وبالأخلاق الإنسانية بصفة عامة...

إن شعورنا المسبق بأن الهندسة الوراثية تهدد الحرية يجعلنا نقف عن التبعات الحقيقية التي يمكن أن تحدثها تكنولوجيا الحياة على حرية الإنسان. وهذا الإدراك المسبق هو تخيل في حقيقة الأمر لأننا مازلنا لم نصل إلى إحداث تغييرات على الجينات الإنسانية المرتبطة بالفعل والذكاء واللون والكذب والصدق.... والتخوف من التبوعات ليس إلا وعي بأهمية هذا العلم وما يمكن أن يحدثه في الحياة الإنسانية من تغيير على فعله وذكاءه وكذبه وصدقته وعدوانيته...

ألا يعد تدخل تقنية الهندسة الوراثية في جينوم الإنسان خطرا على حرته؟ خاصة وأن تمويل هذه المشاريع مرتبط بشركات خاصة وبالتالي إمكانية توظيفها لأغراض خاصة وتحويل الجينوم حسب رغبة المتحكم.

ألا يمكن أن تسرب الجينات المحورة للشركات الرأسمالية الصناعية أو الفلاحية أو الخدماتية فتستعملها للتحكم في العمال ومردودهم الإنتاجي؟

ألا يمكن أن توظف الدول هذه التقنية لصناعة مجتمعات متحكم فيها وتتميز بالخضوع والانضباط لأهداف ترسم من قبل العائلات النافذة في هذه الدول؟

ألا يمكن أن توظف الدول المهيمنة الكبرى هذه التقنية لمواصلة هيمنتها على بقية الدول واستغلال ثرواتها؟

4- خاتمة:

لم تكتف علوم تقنيات الحياة ونقص الهندسة الوراثية بإنتاج بعض الأدوية ومحاولة معرفة التركيب الوراثي للإنسان فحسب، بل تحاول أن تتحكم في هذه المركبات. وبالتالي انطلق التفكير في مسألة الحرية من اللحظة التي أصبحت الهندسة الوراثية تمدّ يدها للإنسان.

وقد استشعرنا تحطيم حرية الإنسان، تحطيم مرتبط بالمستقبل باعتبار أن الهندسة الوراثية مازالت لم تتمكن من تحقيق تغيير على جسم الإنسان.

إن التدخل المفترض في جينات الإنسان بواسطة تقنية الهندسة الوراثية يجعل جملة من المسائل على المحك وأهمها حرية الإنسان، أي أن حرته مهددة بسبب هذا التدخل، لأنه يصبح خاضعا لقوة خارجة عنه باعتبار استبدال جيناته بجينات أخرى، وتحويله إلى كائن متحكم فيه وذات صفات يحددها الآخرون، وبالتالي تدخل في حرته، وجعله مرتين للآخرين.

ليست مسألة الحرية المسألة الفلسفية الوحيدة التي تعدّ مدعاة للتفكير في علاقة بتقنية الهندسة الوراثية بل هناك جملة من المسائل العالقة بالمسؤولية والهوية... وهي من المسائل التي تشغل تفكيرنا ويمكن أن نتطرق لها في كتابات أخرى.

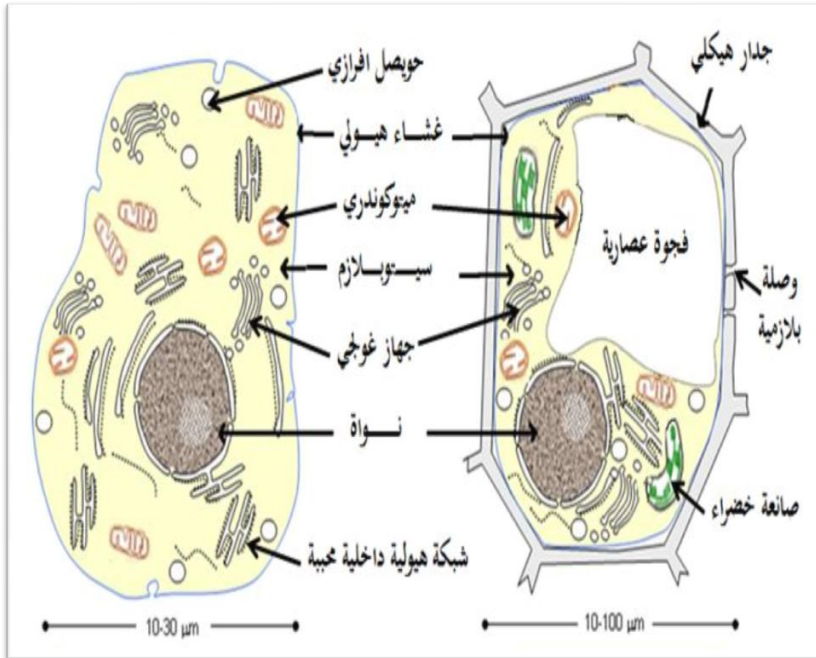
الحرية على محك تقنيات الحياة

إن الدعوة الفلسفية الملحة اليوم هي النظر في مسألة الحرية في علاقة بالهندسة الوراثية، ودعوة إلى الحذر من المساس بحرية الإنسان. ويبقى في أذهاننا سؤال يطرح بإلحاح هو هل نوقف هذا العلم أم علينا أن نضع ضوابط أو قواعد تحرس تدخلاته؟

ذلك ما سنجيب عنه في أعمال أخرى إن أمكننا ذلك. إن الكتابة الموجهة إلى علاقة الهندسة الوراثية بالحرية قد اقترحتها لشعوب الحاضر والمستقبل التي يمكن أن تعيش أزمة حرية بسبب تطور علم الهندسة الوراثية، بحيث نسعى إلى توجيه الفعل الإنساني نحو إمكانية بقاء حر في المستقبل، وعدم المرور بأزمة على مستوى الحرية التي يمكن أن تحدثها الهندسة الوراثية والتطور المريع لهذه التقنية والتحكم في الفعل الإنساني.

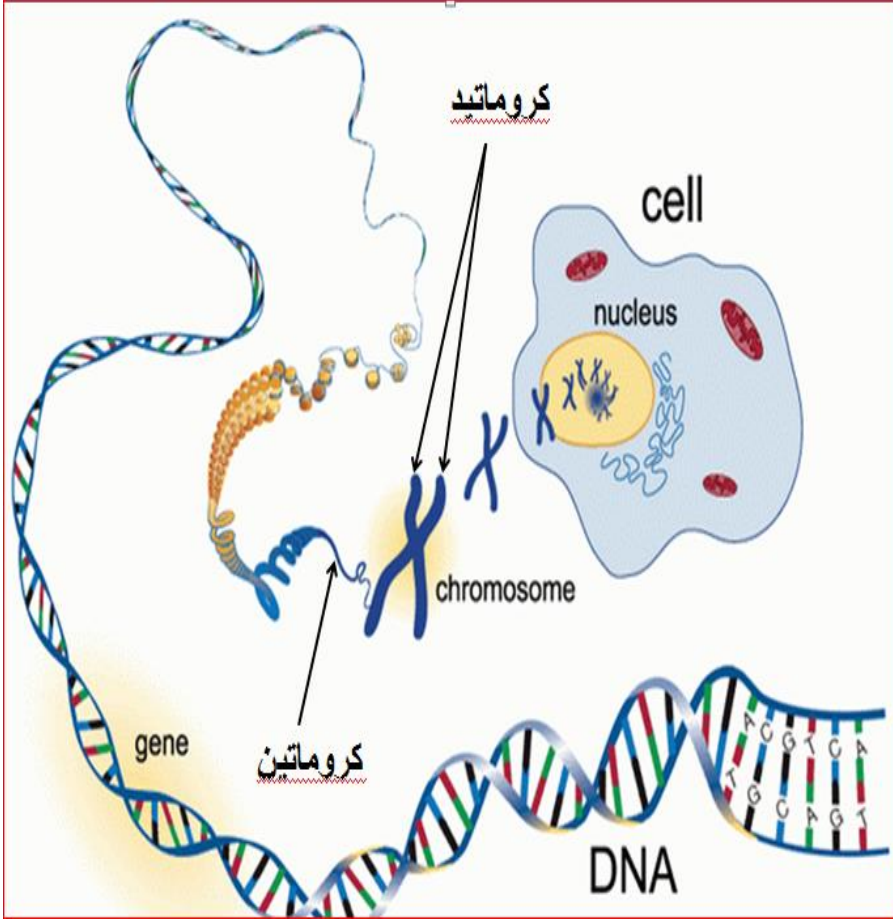
ومن وراء ذلك التنبيه إلى إيجاد حلول عليها تمكن الإنسان من الانتفاع من هذا العلم دون إفساد حريته وتحويل هذا العلم للسيطرة على الإنسان. إن غایتنا من تناول مسألة الحرية في علاقة بالهندسة الوراثية ليس وليد الصدفة، بل هو وليد تقدم علم أكثر فأكثر غريب عن الإنسان. وفي غمار ذلك نواجه عدم الاكتراث بتبعات هذا العلم والقيام بابتكار طريقة تعامل مع هذا العلم والاستفادة منه.

5- ملحق الرسوم:



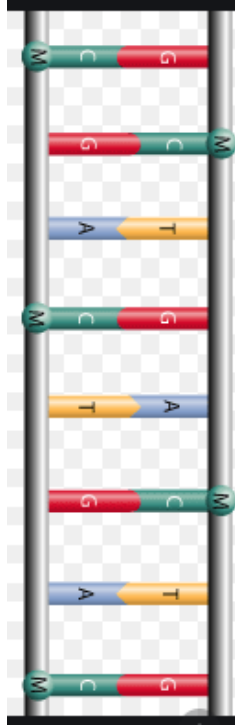
الرسم (1-6): يجسد الرسم مكونات الخلية النباتية والحيوانية.

المصدر: <https://urlz.fr/dSg4/20/09/2020>



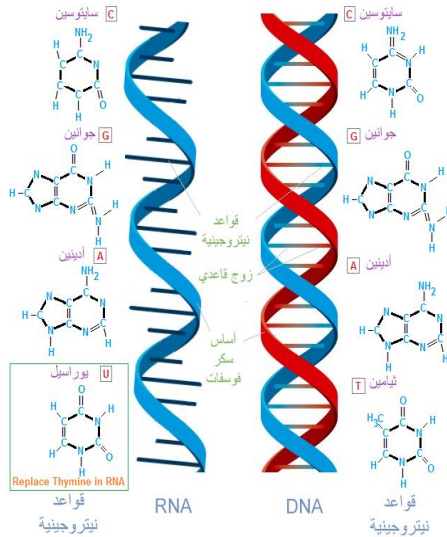
الرسم (2-6): يجسد الرسم الجينة المكونة للحمض النووي منقوص الأكسجين.

المصدر: <https://urlz.fr/dSg5/20/09/20>



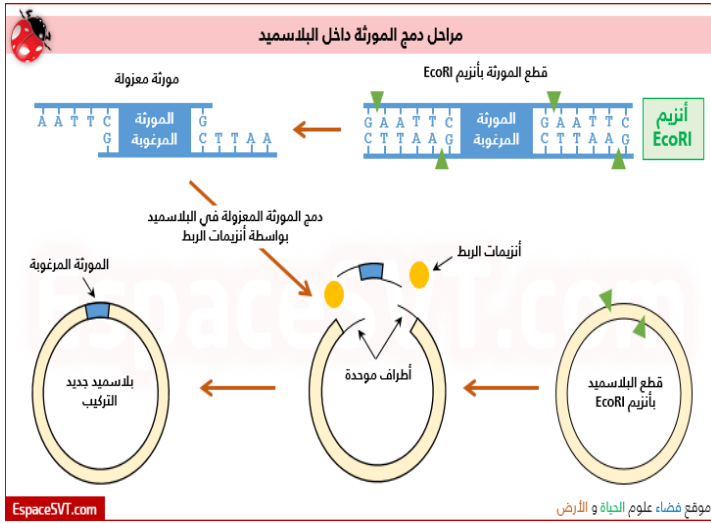
الرسم (3-6): يجسد الرسم الحمض النووي منقوص الأكسجين.

المصدر: <https://urlz.fr/dSg6/20/09/2020>



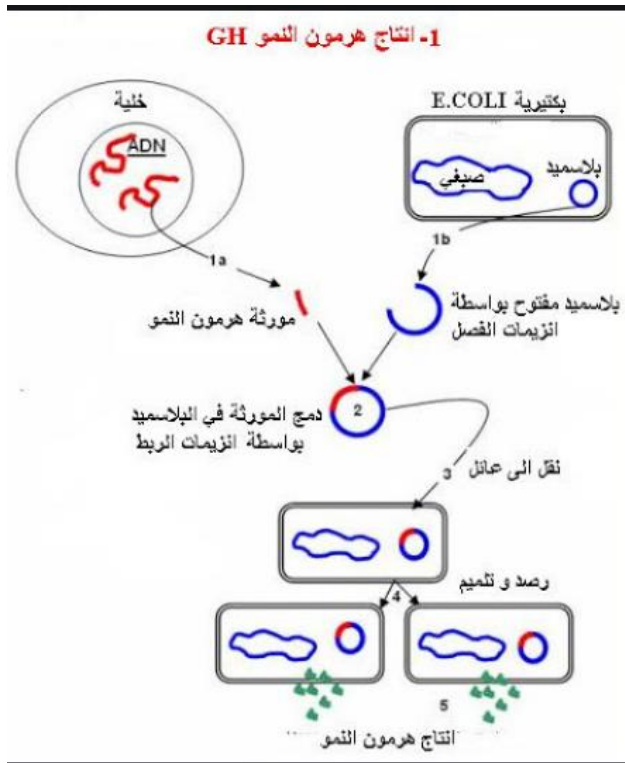
الرسم (4-6): يجسد الرسم الروابط الهيدروجينية التي تربط القواعد المكونة للحمض النووي.

المصدر: <https://urlz.fr/dSg7/20/09/2020>



الرسم (5-6): يجسد الرسم تقنية الهندسة الوراثية.

المصدر: <https://urlz.fr/dSg8/20/09/2020>



الرسم (5-6): يجسد الرسم تقنية الهندسة الوراثية.

المصدر: <https://urlz.fr/dSg8/20/09/2020>

6- الإحالات والمراجع:

- التوسير، لويس، 1986، الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية، ترجمة رضا الزواري، دار الوراق للنشر، تونس.
- الجندي، أحمد رجائي، 1434هـ / 2013، الجينوم البشري من النظرية للتطبيق – رؤية إسلامية ضمن بحوث وتوصيات الندوة العلمية حول الوراثة والهندسة الوراثية واجينوم البشري من منظور إسلامي، عقده مجمع الفقه الإسلامي الدولي بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت في جده 13 _ 15 ربيع الآخر 1434 هجري الموافق ل 23 – 25 فبراير 2013 ميلادي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- دوكنز، تشارلز، 1986، الداروينية الجديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، القاهرة، مصر، دار العين للنشر.
- ريفكن، جيرمي، 1999، قرن التقنية الحيوية، تسخير الجينات وإعادة تشكيل العالم، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية.
- كيقلس دانييل، وهود، ولروي، 1997، الشيفرة الوراثية للإنسان والقضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم البشري، ترجمة أحمد مستجير، الكويت، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- مونو، جاك، 1988، المصادفة والضرورة، ترجمة عصام مياس، بيروت، لبنان، معهد الإنماء العربي.
- Dagognet, François, 1988, Le vivant, , Paris, France, Bordas.
- Descartes, 1861, Discours de la méthode, Paris, France, Librairie classique D'Eugène Belin.
- Descartes, 1939, Lettre au Père Mesland, 9 Février 1645, in Œuvres complètes, Paris, France, Collection pléiade, Paris, France, Editions Gallimard.
- Fichte, 1965, La destination de l'homme, traduit par Molitor, Paris, France, Aubier et Union générale d'Édition.
- Montesquieu, 1979, De l'esprit des Lois, Paris, France, Garnier Flammarion.
- Morère, Jean- Louis, Pujol, Raymond, 2003, Dictionnaire raisonné de biologie, Paris, France, Editions Frison- Roche.
- Rostant, Jean, 1939, Pensées d'un biologiste, Paris, France, Editions Stock.
- Rousseau, 1986, Du contrat social, Livre 1, Paris, France, Garnier Flammarion.
- Russo, Enzo, Cove, David, 1996, Génie génétique, rêves et cauchemars, traduction et adaptation française de Gabrielle Reymond, , Paris, France, Presses polytechniques et universitaires romandes.
- Sartre, Jean Paul, 1968, l'existentialisme est un humanisme, Paris, France, Nagel.
- Spinoza, 1954, Correspondence, Lettre à Schuller 1667, Collection pléiade, Paris, France, Editions Gallimard